الفلسفة : من التنمية إلى الحضارة

الدكتور / يوسف زرافة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة ـ جامعة الجزائر (2)

يؤرخ للإنسان بمدى تحضره، ويؤرخ للحضارة عادة بما حققته من انجازات بالنظر إلى ما سبقها من تراكم حضاري، وما كان الإنسان القديم ليبلغ ما بلغه من انجازات معرفية لولا ذلك الوعاء الحضاري الممتد أفقيا وعموديا والذي توفر له، والحضارة بحكم حاجتها إلى مجهود تنموي حتى تكتمل، فقد وافق ذلك أن اجتمعت عدة شروط، منها الدائم ومنها المؤقت، وحين تتحكم الحضارة وترسخ تبدأ الأنشطة المرتبطة بها في الظهور والإعلان عن نفسها وعلى رأس كل ذلك الفلسفة، بداية العلم ونهايته اللامنتهية التي هي عود على بدء، وبداية البدايات كلها وبداية النهايات جميعها، فكيف يكون ذلك ؟ وهل من وصل بين التنمية والحضارة والفلسفة أم أنَ هناك فصل بين كل من تلك الأطراف ؟

كانت الطبيعة وكان الإنسان، كانت الرغبة وكان الإشباع، كان الخير وكان الشر، وكانت هناك الرغبة الجامحة للخلود لتكون تتويجا لكل الرغبات الأكثر إلحاحا والتي توارثها بنو البشر، وفكرة الخلود التي يمكن أن تلطف بقولنا مع النفسانيين غريزة حب البقاء، ومع الاقتصاديين بقولنا محاربة الندرة وتحقيق الوفرة، هي في الحقيقة ما دفع إلى ظهور حضارات كبيرة، وفلسفات أكبر، مع انجازات شاهدة على ذلك، وبين فكرة الحضارة وتحقق الانجاز هناك إنماء ونمو أي تنمية، فمن منارة الإسكندرية إلى قصر الحمراء

ومن صور الصين العظيم إلى قناة السويس، هناك الإنسان وهناك الطبيعة، وبينهما حوار هادئ جميل مفعم بالصلف تارة وبالنعومة طورا آخر.

لقد أبدع الاقتصاديون في اختراع أسلوب ناجع لتوضيح مدى الاختلاف في تحقيق القيمة المضافة بين سنة وأخرى واعتبروا الفرق في التراكم نموا حتى ولو كان سلبيا من وجهة نظر أخرى ولتكن الثقافية، فرفع سعر تذكرة السفر، قد لا يقلص من عدد المسافرين وفي ذلك نمو، ولكنه يجعل المرء يفكر ألف مرة في جدوى السفر والتنقل، ولكن هل يعد ذلك نموا من وجهة نظر ثقافية بحتة.

إن النمو يقود صوب الحضارة، ولكن يجب أن يكون نموا فيه ديمومة وتقدم، وهو تخصص معرفي قائم بذاته ويعرفه علماء الاجتماع" بعلم اجتماع التنمية" والإنماء والتنمية ليسا طرحا ميتافيزيقيا، ولكنهما برنامج عملي من أجل التكافل بين مختلف العناصر الفاعلة لتحقيق وثبة ي فهم الطبيعة وتحقيق الوفرة لمواجهة الحاجة.

ولكن ما الحضارة ؟

يقول "ول ديورانت" : "إنها مزيج مركب من الأمن والثقافة، من النظام والحرية : أمن سياسي قائم على الأخلاق والقانون، وأمن اقتصادي يستند إلى استمرار الإنتاج والتبادل وثقافة تنبت من تسهيل المعرفة والعادات والفنون ونقلها من جبل إلى جيل."(1)

ولكن ماذا لو وقع خلل في أحد هاته النظم التي ذكرها " ول ديورانت"، دون شك سيحدث اضطراب كبير للانا في التواصل مع النحن والآخر ومن ثمة الاهتزاز في ربط الأجيال مع بعضها البعض.

"لقد كان" إميل دوركايم" يردد القول بأن علم الاجتماع لا يساوي أو يحتاج إلى ساعة واحدة من العناء، إذا لم يساعد على حل المشكلات الاجتماعية. وفي كثير من المجتمعات هناك حاجة ملحة إلى 'التنمية' لحل مشكلات اقتصادية واجتماعية وذلك حين تتخلف تكنولوجيا الزراعة، وتتلكأ نظم الإدارة، بينما تتوكأ نظم التربية، وتتعثر عملية التعليم، ومع بدائية نمط الحياة، وثباته، يعم الكساد مما يمنع أو يقلل من إنتاجية الصناعة، ومع تضخم التعداد البشري، يطهر الفقر ويطوي البؤس نفوس الأفراد، وتنخفض الأجور، وتنتشر البطالة، بينما تقل الموارد وتهبط معدلات الدخول، كل هذه مشكلات أساسية تواجه عملية التنمية." (2)

ولا يجب أن يكون الواقع المجتمعي العالمي ممثلا في أقطابه الجهوية والواقع المجتمعي للمغرب العربي قدرا محتوما لا مفر منه، فأوروبا "روما" وأوروبا" ماستريخت " وأوروبا" لشبونة" هي أوروبا " ايطاليا،واسبانيا،و فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، فخلفت حضارة بلغت من القوة حدا لم يعرفه التاريخ من قبل... وعزفت موسيقى لم تحلم بها العهود الغابرة، وحصلت معرفة وقوة، ونقلتهما من جيل إلى جيل بما لم يسبق له مثيل ... ثم تظهر أمريكا، وتبني حضارة على أساس أوسع مما رآه العالم من قبل." (3)

ولكن ماذا عن المغرب العربي ؟

صار الإيمان راسخا لدى الجيل الحالي ومن قبله الأجيال السالفة بأن المغرب العربي يمثل وحدة واحدة متجانسة يمكنها أن تكون قطبا جهويا مثلها في ذلك كمثل أوربا، بل أن التفاؤل قد بلغ مداه حين التوقيع على نشأته الرسمية كاتحاد للمغرب العربي بأنه سيطوي مسافات الزمن، وسيكفكف دموع

الحزن، وسيقف في وجه الإحن، معجلا بالبناء الموعود، ولكن يبدو أن التفاؤل قد غطى بعض الوقت على المشكلات التي تدخل تحت طائلة المعوقات الفعلية لعملية البناء، لست مختصا في علم الاجتماع لأبحث في المعوقات الفعلية لعملية البناء، ولست مختصا في علم الاقتصاد لاقترح توحيدا للتعريفة الجمركية أو إلغاءها على المنتجات الوطنية، أو البحث في إنشاء بنك مركزي مغاربي للإنشاء والتعمير، ولكن علينا أن نبحث كم هي العناصر التي ربما لا يقوم الاتحاد بدونها ؛ وهي من غير شك كثيرة، وستعمل حال إقرارها وفق منظور توافقي على تحقيق وثبة ايجابية في إطار عملية إنمائية دائمة .

ويتدخل الباحث في المجال الفلسفي ليقترح جملة من الحلول يبدو أن جلها ينحسر في البحث عن أخلقة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي عملية فلسفية صميمة تسبق الحلول الردعية والقانونية لما يمكن أن يكون عائقا للتنمية

إن أهداف الدولة كأرقى مؤسسة اجتماعية هي أهداف سامية تسعى لتحقيق النمو والاستقرار للمواطنين فيها، وقد تصطدم تلك الأهداف النبيلة التي توصف بالكلية والجمعية والسامية، بأهداف أخرى فردية يطبعها الأنا، فينشأ ما يعرف لدى الفلاسفة بالفساد الأخلاقي، وهو ضد الصلاح ويعرف بأنه سلوك قيمي سلبي يهدف فيما يهدف إليه إلى النيل من الحقوق العامة ووضعها في خدمة الفرد الواحد، والفساد يمكن وصفه بالداء العضال الذي لا برء منه إن تحكم واستفحل إلا بالبضع أو الاستئصال .

والفساد عائق كبير أمام التنمية، إذ انه الطريق لتآكل الموارد، وإهدار الطاقات، والمس بأساليب التمويل، وزعزعة استمرار الثقة في القدرات، وإن

كنا لسنا مخولين لإيجاد الحلول لذلك لأنه من صميم أعمال الدولة، وليس أمام الفرد من خيار سوى الانضمام إلى المؤسسات المخولة قانونا لمكافحة الفساد. والفساد عمل لا أخلاقي وهو غير قانوني كما أنه مصدر لشرور لا حصر لها في العالم كله ويمتاز بالتنوع والنفعية.

و على المؤسسات الساهرة على إنجاح التنمية أن تبقى مؤسسات ذات قوة لتمظهر القيم الأخلاقية بالأساس عن طريق الإقناع والتعود أو بأسلوب المساءلة والعقاب .

إن التنمية عطاء دائم مفعم بالحب، ونابض بالصدق، وهي تركيب وتجديد وإبداع، وعليها أن تحاط بأسباب النجاح لأنها طريق الحضارة الموصل إلى ترسخ قيم الفلسفة بالحقيقة ومراميها الأخلاقية، وان واكبت الفلسفة عملية التنمية من جهة ما ينبغي أن تكون عليه فإنها ستكون من غير شك إحدى النجاحات الحضارية الحسنة.

إن الحضارة نتاج تنمية ناجحة، والفلسفة ثمرة الحضارة الراسخة. والتنمية في الأزمنة الحديثة تمثل سعيا حثيثا لبلوغ محطة الحضارة، وهي القاطرة التي تجر معها أعمالا أخرى في عربات أخر ستلتقي حتما في محطة جامعة لهم جميعا دون تنافر.

لما تدرك العلاقة القائمة بين الفلسفة والتنمية والحضارة، لنا أن نتساءل عن معاني التنمية بالمغرب العربي، وعن أهدافها السامية، والواقع أن للفلسفة بالحقيقة دورا تلعبه ضمن الكيان الأخلاقي المشترك لبلدان المغرب العربي، مع المحافظة على وتيرة التنمية كأسلوب لتحقيق الوثبة الحضارية.

تواجهنا اليوم تحديات جمة وعلى المغرب العربي أن لا يضع جهده موضع تساؤل بل يجب عليه أن يجد توافقا ضمن محيطه الطبيعي وأن يضبط التوازنات الكلية للاقتصاد، خاصة إذا علمنا أن النظام الاقتصادي الدولي قد بدأ

يتآكل، وأن الانعكاسات الاجتماعية للأزمة الاقتصادية العالمية سوف تتضاعف في المدى القريب، وحتى مجموعة العشرين التي أنشأتها مجموعة الثماني لتؤسس لما بعد الأزمة لا نجد فيها تمثيلا لأي من بلدان المغرب العربي، رغم جدارة بعض أعضائها بذلك.

وقد تكون اللحظة الاقتصادية دافعا ملحا للتفكير في وضع إطار يسمح لكل بلد على حدى بالتفكير في كيفية إحداث تقارب جدي ومتقدم مع بقية الأعضاء وقد يتوج ذلك بتوحيد سبل التجارة الخارجية قدر الإمكان دون الإخلال بالتوازنات المالية الداخلية لكل عضو فيه.

ولكن هل يمكن للفلسفة أن تعود حقا ؟

كان سلف أهل المغرب العربي ورثة شرعيين للحضارة الكونية ردحا من الزمن، وكانت مدنهم مضيئة الشوارع ليلا، حافلة بطالبات وطلاب العلم نهارا، وكان جدهم "ابن رشد" فاتحا كبيرا في العلوم العقلية والعلوم النقلية على حد سواء حتى لقبه "القديس توما الاكويني" بالشارح الأكبر، وفي ذلك إقرار بأهمية ودور"ابن رشد" مما يجعله موقفا داحضا لما رآه "ارنست رينان" لاحقا في كتابه "ابن رشد والرشدية "(❖)، ونحن لا نود في هذا المقام أن نعطي غطاء لما ارتكب في حق ابن رشد من إجرام فتلك قضية أخرى تستدعي موقفا آخر.

كما كان سلف أهل المغرب العربي يحترمون الآخر ويقدرونه حق قدره ولا يقبلون من أي كان أن يتدخل في شؤونهم الخاصة، وحكاية "رامون لول " مع أهل بجاية بما حملت من طرافة ومأساة خير دليل على ذلك .(❖❖) ويتعين على الخلف اليوم أن يجمع على أهمية استحضار انيته التاريخية وما تبقى من عزم الآباء البناة حتى يتخطى عقبات الماضي القريب الذي عزل فيه عن العالم الخارجي وحول في أحد أقطار المغرب العربي إلى مجرد رعية بعد أن كان سيد البر والبحر معا.

الهوامش :

1- ول ديورانت، مباهج الفلسفة، ترجمة : أحمد فؤاد الأهواني، تقديم : إبراهيم.

2- بيومي مدكور، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1955، الجزء الثاني، ص : 93 .

3- قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع السياسي، منشأة المعارف، دون تاريخ، ص : 434.

4- ول ديورانت، مباهج الفلسفة، ج : 2، ص ص : 92، 93.

❖- ارنست رينان، ابن رشد والرشدية، ترجمة : عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957.

❖❖- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، الجزء الثاني، ص : 381.

النزعة العقلانية في الأخلاق عند الجاحظ

الأستاذ / عبد المجيد الجوزي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة ـ جامعة الجزائر (2)

ملخص :

يسعى هذا المقال إلى تبيان تجليات العقلانية في فكر أحد أهم مفكري المعتزلة المغمورين فكريا ونعني به الجاحظ.والمقال يسلط الضوء على عقلانية الجاحظ في فكره الأخلاقي.فالجاحظ صاحب فلسفة أخلاقية تتصف القيمة الأخلاقية فيها عنده بالضرورة والكلية والشمول وأساسها الذي تبنى عليه عنده هو "الطبع" الذي يحقق شرط الموضوعية.والضرورة والكلية والشمولية والموضوعية هي مميزات المذهب العقلاني الأخلاقي.فحق لمذهب الجاحظ الأخلاقي أن يدرج ضمن المذاهب الأخلاقية العقلانية.

الكلمات المفتاحية : الجاحظ، الأخلاق، النزعة العقلانية.

مقدمة :

الفلسفة العملية فلسفة تَعُدّ المعرفةَ أداة لتحقيق نتائج عملية[1].والجاحظ (776م – 869م) لم يكن مجرد مفكر نظريّ وإنما كانت له جهود تطبيقية، حاول من خلالها تجسيد فلسفته في المجتمع الذي عاش فيه. وها هو يرى أن "الحكمة قول وعمل"[2]. ولا أدلّ على اهتمامه بالجانب العملي ؛ من محاولته تطبيق أفكاره السياسية في أرض الواقع، الأمر الذي دفعه إلى إنشاء عدة رسائل